تطور المغرب - واجب الأمة - واجب الحكومة

المغرب

السنة الأولى - الأعداد 2 (19 ابريل) 4 (23 ابريل) و 6 (28 ابريل) 1937

1

يجتاز المغرب اليوم أوقاتا عصيبة وأزمات شديدة، فجميع مظاهر الحياة فيه أصبحت عنوان التذمر والشكوى، وكل أفراده يقاسون ألوانا من الاضطراب النفسي العنيف، ويشعرون في أعماق أنفسهم أن الضعف يلازم خطواتهم ومشاريعهم، وأن سوء الاتجاه يسيطر على جميع مواقفهم؛ فإذا أمعنت النظر وشاركت كل طبقة في إحساسها، واستمعت إلى شكواها لا تكاد تخرج من أزمة عسيرة إلا لأزمة أشد منها، ولا تكاد تتعرف ناحية بؤس حتى تهاجمك نواحي شتى كلها شقاء وكلها ضعف. فالفلاح اليوم - وهو عماد ثروة المغرب وأساس كيانه - ينتحر يوما فيوما انتحارا معنويا، ويفر أمام الأزمات، ولكن لا يدري أين يسير؛ فمن سوء تصرف الولاة إلى جفاف الصابة، ومن تكلب مخدرات المدنية عليه إلى فساد أخلاقي يصرعه صرعا. والصانع وهو يئن من فداحة ما يؤدي للإدارة، وما تكلفه به العوائد الاجتماعية البالية، تهاجمه ضروب من النشاط تبديها عقول المخترعين ويستغلها أصحاب المال، فإذا بصانعنا اليدوي المسكين منزو أمام هذه الصدمات، ذاهل أمام هذا النشاط وإذا به يلقي السلاح ويتشرد في الطرق. والتاجر خانه الحظ فعدم زبناءه الذين هم الفلاحون التائهون جوعا والصناع المتشردون فاقة. والشاب لا يكاد يشعر بابتسامة الحياة وأملها حتى تختلط عليه السبل وتضعف أمامه نفسه ويضطرب الجو الذي يعيش فيه، فتراه بعد أيام معدودة من الأمل الباهت يقنع بشظايا العيش، يحصر همته في لقمة

خبز تتناولها يده إلى فيه، وهو بذلك راض لا يفكر في شيء آخر، فإذا ناقشته الحساب وأوضحت له أي اتجاه من القوة يأخذه الشباب في أمم أخرى أجابك باختصار بأن يلقي المسؤولية على غيره. وأظن أني غير مضطر إلى استعراض بقية الطبقات المغربية الأخرى التي طفح كيل الأزمة والاضطراب عليها فذاك ما تراه عيناك كلما سرت خطوات في هذه البلاد. فإذا بحثنا عن الأسباب التي تركت المغرب في هذه الفوضى وجعلته ينتحر ليفر من الحياة ويلقى أفراده بأنفسهم في زاوية الإهمال والنسيان تجنبا للشعور بويلاتهم وأزماتهم لا يمكن لك أن تجد إلا سببا واحدا هو أصل الداء، وهو الذي يؤدي حتما بالمغرب والمغاربة إلى نهاية سوء وعاقبة موت. السبب الوحيد في كل تلك الأزمات وجميع هذه الاضطرابات هو جمود المغرب أمام التيار الذي أخذ العالم من التجديد والنشاط وحب الحياة عن جهد وقوة لا عن ضعف ولا عن موت. جمود المغرب هو علة المغرب الدفينة، فلا نكون مبالغين إذا علقنا مستقبل بلادنا على جمودها وتطورها، فإذا بقى المغاربة جامدين لا يلتفتون إلى ما تنتجه الأمم الأخرى في مختلف الميادين وما تقوم به من مجهودات لترتقى وتتقدم، فهم في اضطراباتهم خالدون بل هم إلى مصير مجهول محفوف بأنواع الأخطار سائرون. فإذا فهمنا الداء وشعرنا بألمه ينخر في جسم أمتنا ويمتص دم حياتنا، وأدركنا أنه من المستحيل أن تدوم لنا حياة ما دمنا واقفين بينما الإنسانية جمعاء تسير لا ببطء ولا هوادة ولكن بخطوات واسعة تجتاز المسافات تلو المسافات، وتخترق المصاعب إثر المصاعب، إذا فهمنا ذلك وجب أن نتطور وأن نساير العصر في مظاهره العملية وأن نتسلح قبل كل شيء بسلاح العلم. فالتطور الذي ننشده للمغرب هو الوسيلة الوحيدة لتزيل عن الفلاح تيهه، وعن الصانع انزواءه، وعن التاجر كسده، وعن الشباب الموانع التي تحول بينه وبين الحياة الفسيحة النشيطة. فإذا تطور المغرب هان كل شيء ويسر كل شيء. ولكن بماذا يتطور؟ ومن المسؤول عن تطوره؟ أهي الأمة؟ أم الحكومة؟ أم هما معا؟ هذا ما أرجو أن يكون حديثي عنه في المرة المقبلة.

يكاد الجميع يتفق على أن المغرب أصبح على أبواب عصر جديد قد يكون حافلا بما ييسر الهناء لأفراده، وقد يكون معاكسا لوضعياتهم تعاكسا يؤدي إلى سوء وإلى اضطراب؛ فإذا أمعن النظر وساعد الاستنتاج على محاولة تصور المستقبل الذي ستنغمر فيه أمتنا، فالذي يتضح جليا أننا على أبواب عصر سنلقى فيه كل المتاعب وسنعيش فيه على هامش الحياة. فالمجموع المغربي من الآن أصبح بعيدا عن كل ما يتصل بالنشاط، وأصبحت أبرز مميزاته هذه الاستكانة وهذا الجمود، وتلك ميزة لا تؤدي حتما إلا إلى نتيجة سلبية؛ ولعلنا لا نطيل البحث عن وسيلة تؤدي إلى بث روح الحياة والنشاط في مجموعنا، ولا نختلف في الطريق التي من شأنها ألا تلقى بنا إلا في عصر نور، فالمغاربة جميعا يتفقون على أنه ينقصنا شيء واحد فينقصنا الجميع، فبدون هذا الشيء الذي ينقصنا لا يمكن أن نتطور تطورا يحفظ مركزنا في المجتمع البشري؛ فليست الثروة هي التي تنقصنا، وليس الذكاء هو الذي يعوزنا، وليس الجو هو الذي يساعدنا، بل الجهل الذي يخيم علينا، ويحتل عقولنا، ويصيرنا حيوانات تسير بالعصا وتقاد بالشكيمة. والمغاربة إذا فكروا جميعا، واتفقوا على أنه ينقصنا العلم، فذلك لأنهم يقدسون العلم ويعلمون منزلته ومكانته، ولكن ينقص المغاربة العلم ليطالبوا بالعلم، وتنقصهم روح تسيطر على النفوس ترى مطمحها الأول والأخير في التزود بالمعرفة ونشرها بين أبناء المستقبل، فإذا البعض والكل يبشر بإعلان حرب زبون على عدو بيده القضاء المبرم على وجودنا، عدو يجعلنا نغتال أنفسنا، ونسمم أجسامنا، ونلقي بأرواحنا في المهالك، ونحن ندري أو لا ندري. فإذا حارب المغاربة هذا العدو الألد، فاستأصلوا داء الجهل، ووحدوا الجهود لنشر المعرفة، فالحياة المغربية ستتطور في يوم وليلة؛ وإذا تطورت أصبحت تدعو إلى التفاؤل، وتبعد الإنسان من هذا التشاؤم الذي سيطر على جيلنا في أمده الأخير. ولكن يجب أن نتصور أن جهودنا لنشر العلم ولو بلغت ما بلغت لم تكن إلا جهودا ابتدائية تنقصها

الخبرة. فواجب الأمة قبل أن تفكر في إطعام البطون أن تفكر في إطعام العقول وتلقيح الأفكار واقتباس ما تتفاخر به الأمم؛ والمغرب اليوم في مرحلة عدم فيها كل الرجال، وقلت خبرة أبنائه بجميع المسائل؛ فقبل أن نؤسس أنظمة ونبنى المعاهد يجب أن نقتبس من الغير، ولن يتحقق ذلك إلا بإرسال البعثة تلو البعثة إلى أمم تعيش في عصورها، فإذا انقلب أفراد كل بعثة راجعين إلى موطنهم حملوا زاد الحياة معهم، ونفضوا عن أجسامهم وعقولهم داء الخمول، واستعدوا لمحاربة الجهل بإنشاء المدارس وتكوين جيل جديد بروح جديد. فإلى إرسال بعثات إلى الخارج حيث المعرفة وحيث النور يجب أن ندعو الآن ونحصر عنايتنا واهتمامنا حتى يتكون لدينا جيل يقدر نفسه، ويحدد آماله، ويحقق مشاريعه.

ذلك هو واجب الأمة في مرحلتها هذه لتتطور وتنشد الحياة الصحيحة غير التي تحياها، أما واجب الحكومة فهو ما أريد أن أتحدث عنه في يوم آخر.

- 3 -

إذا ما استعرض المرء كل المؤثرات التي لها مفعولها على الحياة المغربية وجد أن المؤثر الأول والرئيسي في جميع المظاهر هو الحكومة التي كانت في مختلف أطوار المغرب الماضية ولا زالت مسيرة الشؤون العامة ومحتذى كل طبقات الأمة ومسؤولة عن كل أحوالها وأمورها، ولم يكن اتجاه الأمة هذا مما ينقص من شأنها، فالأمم في الماضي لم تكن إلا صورة عن رؤسائها الذين يتحملون الجزء الأكبر من جميع الأعمال التي تكون للمجموع؛ أما اليوم فقد تغيرت الوضعية وأصبحت الجماعات تشاطر الحكومة في كثير من المسؤوليات الاجتماعية، وتتحمل جزءا من الأتعاب التي لم تكن في الماضي إلا من نصيب الإدارة، وذلك لما طرأ على الحياة الإنسانية من تطور عظيم لم يعرفه المغرب. فلا زلنا تحت تأثير هذا الماضي نتصور أن المسؤوليات جميعها تلقى على الحكومة التي من شأنها

أن تقوم بجميع المشاريع ومختلف الأعمال، وبذلك نكثر اللوم ونستريح في أغلب الأحيان مما يحتمه علينا الواجب الاجتماعي نحو أمتنا من مجهودات في سبيل بعثها من جديد وتكوينها تكوينا صحيحا لا أثر للفوضى ولا للخمول فيه. ولكى نصل إلى هاته المرحلة التي نصبح فيها مقدرين لمجهوداتنا الفردية، عاملين لصالح الجماعة، لا بد أن تساعدنا الحكومة على اجتياز هذا الدور الصعب المسالك، وبذلك تستريح الحكومة من لوم كثير ومسؤوليات مرهقة. ولكن يسوؤنا أن نعلن الآن أن الحكومة التي من شأنها أن تمد اليد للشعب لينهض، كانت في أغلب الأحيان تفهم هذا النهوض فهما مخالفا للحقيقة، فهما غريبا في بابه، لا يستند على أساس من القوة، بل يتكي على دعامة من الأوهام والسفاسف. فكثيرا ما يكون لأهواء الأفراد تأثير على السياسة التي ستتبع في هذه البلاد، فيتجهون بها اتجاها مضادا لأية محاولة تكون من شأنها النهوض بالمغرب والتخفيف من مسؤوليات الحكومة بتكوين جيل جديد يشارك الإداريين في العمل لصالح الشعب ولفائدته. ورجاؤنا أن يفهم هؤلاء الإداريون في صراحة أننا نود أن تخفف عنهم كثيرا من مسؤوليات، فلا بد من أن يفسحوا لنا المجال ويزيلوا عن أنفسهم هذه الظنون والوساوس التي صبغت بها سياسة الإدارة في المرحلة الأخيرة. فتكوين جمعية ليس معناه أى عداء لسياسة تبنى على الصراحة والثقة، وإنشاء صحيفة لا يمكن أن يفهم منه أن جماعتنا تريد النقد دون غيره، وإرسال بعثات إلى الخارج لم يكن في يوم من الأيام وسيلة سياسية طائشة فنمنع منها، وكذلك كل المشروعات التعاونية التي هى مظهر المدنية البارز في عصرنا الحاضر. فكل ما نود أن نطالب به الإداريين أن يفسحوا المجال لأية فكرة تعاونية عملية تؤدي إلى تطور الشعب المغربي وتقدمه؛ ففي هذا التطور وهذا التقدم ما يجعل الثقة متبادلة بين حكومة وأمة، ويجعل آمالنا في دائرة التنفيذ والتحقيق، وهى آمال لا تخرج عن أنها تعمل لخدمة أمة دون أن تؤدى إلى المس بأمة أخرى، وتسعى في رفع مستوى الجماعات لتتحمل نصيبها من مسؤوليات الحياة.